الإجرام فى مصر

لحضرة صاحب العزة محمد البابلى بك
مدير كلية البوليس الملكية

لقد أصبحت جناية القتل العمد فى الريف المصرى ، بحكم كثرة وقوعها ، أمرا عاديا الى درجة أنها أضحت لا تثير اهتماما خاصا لا فى الصحف ولا فى أوساط الجمهور . فبينما نرى أن جناية القتل فى انجلترا مثلا ، مهما بَعُد مكان ارتكابها ، ما زالت تحتل مكانا ممتازا فى الصحف الكبرى ، مصورةً فى شكل بارز ومشفوعة بعبارات وأوصاف لافتة للأنظار ، نجد أن نظيرتها فى مصر لا تنال مثل هذا الاهتمام فى الصحف ما لم تكن تشتمل على ناحية ذات شأن خاص . ويمكن أن يقال مثل ذلك عن جمهور القرويين ، الذين أخشى أن يكون الكثيرون منهم أكثر اهتماما بما يبدو على الموكب المؤلف من رجال التحقيق وقوات البوليس من مظاهر خلابة . ونحن اذا رجعنا الى الاحصاءات الجنائية — وهى تعطينا ملموسا ثابتا تقريبا فى خلال السبع السنوات الأخيرة — نصل الى النتائج الآتية :

أولا — ان جرائم القتل عمدا بدافع الانتقام تكون العنصر الغالب فى الإجرام المصرى بصفة عامة .

ثانيا — ان الجانب الأكبر من تلك الجرائم يرتكب فى الريف . ولو كان أمامنا رسم بيانى لاتضحت منه النسب الآتية :

(ا) ان نسبة تبلغ ٧٤ ٪ من مجموع الإجرام الجنائى ، سواء أكان مرتكبا ضد النفس أو المال ، ترتكب بدافع الانتقام . ويقابل ذلك فى انجلترا نسبة تبلغ ¼ ٪

(ب) ان نسبة تبلغ ٨٠ ٪ من مجموع ما يرتكب من الاجرام الجنائى فى الريف المصرى ترتكب بدافع الانتقام بينما ترتكب منه نسبة ١٨ ٪ لأسباب مادية و ٢ ٪ لأسباب خلقية .

(ج) ان مجموع جنايات القتل العمد والشروع فيه تكون نسبة ٣٩ ٪ من مجموع الإجرام الجنائى بالقطر بينما ترتفع هذه النسبة الى ٥٣ ٪ من مجموع الإجرام الجنائى الذى يرتكب بدافع الانتقام . وهذه النسبة عينها ترتفع فى الوجه القبلى

الى ٥٤ ٪ بينما تهبط فى الوجه البحرى الى ٣٥ ٪ تقريبا وذلك على الرغم من أن تعداد السكان فى الوجه البحرى يزيد عليه فى الوجه القبلى .

(د) ان نسبة تبلغ ٨٩ ٪ من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب فى الريف .

كذلك يتضح من الاحصاءات الجنائية نتائج أخرى منها :

١ — ان نسبة ٧٠ ٪ من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب مع الترصد أو سبق الاصرار وأن ٦٧ ٪ من هذا النوع الأخير يرتكب ليلا بينما أن ٦١ ٪ منه ترتكب فى المزارع خارج مساكن القرية .

٢ — ان نسبة ٧٠ ٪ أيضا من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب بواسطة الأسلحة النارية بينما ترتفع هذه النسبة الى ٩٠ ٪ تقريبا فى الجنايات المصحوبة بالترصد أو سبق الاصرار .

أما فيما يختص بالنسبة الى عدد السكان فانه يتضح أن هناك ٢٢٤ جناية قتل أو الشروع فى قتل عمدا مقابل كل مليون من السكان بينما يعادل هـذا الرقم فى انجلترا ٥ جنايات لكل مليون من الأهالى .

وأخيرا فيما يتعلق بنسبة الإجرام الى الزمن نجد أن المتوسط يكاد يبلغ على وجه التقريب جناية فى الساعة الواحدة ، وجناية قتل أو شروع فى قتل فى كل ثلاث ساعات .

على أنى قبل أن أنتقل من هذه النقطـة أود أن أحذر القراء من الاحصاءات الجنائية فانها ، على الرغم ممـا هو مسلم به من أنها خطوة لازمة لدراسة الإجرام ، كثيرا ما تخدع الباحث ، بحيث إن من الخطأ البين أن يسارع الانسان الى استنتاج النتائج من أرقامهـا المجردة قبل أن يكمل بحثه بدراسة وافية لكافة العوامل المختلفة التى تسبب الإجرام فمن المعروف أن الاحصاءات الجنائية فيها عيبان أساسيان أولهما أنها شديدة المرونة والثـانى أنها مضللة فى كثير من الأحيان وسأضرب بعض الأمثلة على ذلك .

فأما من حيث مرونتها فان من المدهش حقا أن نرى الاحصاءات قابلة لأن تلتوى ذات اليمين وذات الشمال بسهولة كثيرا ما جعلتها تصلح أساسا لرأيين متناقضين فى وقت واحد . ولقد صدق أحد الباحثين حيث قال إنك لتستطيع أن تصنع من الاحصاءات كل ما يعجبك فمن منضدة مربعة الشكل الى زوج من الخالات ، وها كم مثلا واحدا وهو خيالى محض يوضح كيف أن كلا من النقص والزيادة فى الإجرام يمكن أن يستخدم كلاهما لإثبات أمر واحد بعينه .

لنفرض أنى قصدت فى زمن غابر مديرا لأحد الأقاليم وقلت له إن هناك نقصا محسوسا فى رقم الجرائم فى مركز معين فإنك قد تراه وقد انبسطت أساريره وأجابك فى ابتسامة الثقة

ان ذلك يرجع الى ما بذله من مجهود واتخذه من إجراءات كان لها الفضل فى استتباب الأمن فى ذلك المركز ، فاذا ما عقبت بقولى إن الأرقام تدل على ازدياد كبير فى المركز المجاور فانى قد لا أسبب له بذلك أى ارتباك ، بل قد أراه على العكس وقد أجاب فى ابتسامة أكثر ثقة واطمئنانا أن هذه الزيادة إنما ترجع الى كفاية رجاله الذين تمكنوا بفضل جهودهم من كشف خفايا الكثير من الجرائم الدفينة الأمر الذى أدى الى اكتسابه لثقة الجمهور فأقبل الناس عليهم يبلغونهم من الحوادث ما كانوا من قبل يفضلون إبقاءه فى طى الكتمان .

أما من حيث كونها مضللة فان المشاهد أن الإحصاءات كثيرا ما تصور لنا فكرة خاطئة عن المقدار الحقيقى للإجرام إذ أنها تغفل على الدوام ذكر الحوادث الناجحة تلك التى لا يدرى أحد عنها شيئا وتغفل أيضا الحوادث التى قد يعلم الناس بها ولكن لا يصل علمها الى البوليس لسبب من الأسباب الكثيرة كامتناع المجنى عليه أو الشاهد عن التبليغ عجزا منه أو خوفا أو إشفاقا على الجانى أو رغبة فى الانتقام قصاصا ولا شك أن مثل هذه الحالات تؤلف جانبا كبيرا من الإجرام .

ولا يقتصر تضليل الإحصاءات على مقدار الإجرام بل هو يمتد حتى الى نوعه فكثيرا ما يصور خطورة الجريمة أو أهميتها تصويرا خاطئا فالأم المهجورة التى تلجأ رغما عنها وخوفا من الفضيحة الى التخلص من مولودها تعتبر فى نظر الإحصاء الجنائى مرتكبة لجناية خطيرة جدا عقابها الإعدام ، واللص الذى يقتحم فى منتصف الليل منزلا مسكونا بطريق تسلق السور أو كسر الباب أو غير ذلك وهو مدجج بالسلاح من قمة رأسه الى أخمص قدمه قد لا يرتكب فى نظر القانون ، إلا جنحة بينما السائق الطائش الذى يعتبر بحق خطرا مهددا لأمن الناس وأرواحهم لا يزيد عمله على مخالفة تافهة ، بل قد لا يكون فيه جريمة على الإطلاق ، بل أن الإحصاء قد يخدعنا حتى فى بيان نسبة الإجرام الى تعداد السكان ما لم نجعل نصب أعيننا حقيقة واقعة هى أن أرقام الإحصاء لا تشير الى عدد الجرائم ذاتها أو الى عدد المجرمين بل الى عدد القضايا فى حين أن القضية الواحدة قد تشتمل على أكثر من جريمة واحدة أو مجرم واحد .

على أن الإحصاءات الجنائية على الرغم من عيوبها ما زالت تعتبر الأساس الذى ينبغى أن يبنى عليه كل درس صحيح لأسباب الإجرام .

الأسباب — والآن وقد وصلنا للكلام عن الأسباب ، علينا أن نسأل أنفسنا ، لماذا أصبح القتل ذائعا فى الريف المصرى الى هذا الحد ؟

لقد ظهر لنا من الإحصاء أن الانتقام وهو العامل المتغلب فى الإجرام المصرى بوجه عام وفى القتل العمد بوجه خاص عامل يرجع إلى العاطفة والشعور لا الى حب المادة ، وظهر

من الإحصاء أيضا أن ذلك العامل عامل الانتقام أشد ظهورا فى الوجه القبلى عنه فى الوجه البحرى، بل انه أكثر رجوحا حتى فى الأقاليم الجنوبية من الوجه القبلى كأسيوط وقنا عنه فى الأقاليم الشمالية، وقد لوحظ مثل ذلك تماما فى الإحصاءات الخاصة بالقارة الأوروبية حيث ترى الاجرام أرجح كفة فى الممالك والبلاد الجنوبية منه فى البلاد الشمالية، بل وفى المناطق الجنوبية من دولة بعينها فهل يستنتج من هذا أن طقس المناطق الحارة له أثره فى ازدياد الإجرام الانتقامى ؟ يظهر أن معظم علماء الإجرام يرون هذا الرأى .

ولقد ظهر من الإحصاءات أيضا أمر آخر فيه تأييد للحجة المتقدم ذكرها وهو أن الإجرام الانتقامى بما فى ذلك القتل يزداد مقداره فى الفصول الدافئة من السنة ونحن لو ألقينا نظرة الى هذا الإحصاء لوجدنا أن خط سير الرقم الخاص بالإجرام الجنائى فى مجموعه (وعلى منواله تماما الرقم الخاص بالقتل والشروع فيه) كلاهما يرتفع فى فصول الحر ويهبط فى فصول البرد وانه يواظب على هذا التقلب بطريقة منتظمة وفى مدى خمس سنوات متوالية دون أى شذوذ حتى أنه ليشبه فى تقلباته أسنان المشط ، على أن هذا التقلب لا يرجع الى العوامل الجوية وحدها فهناك عوامل أخرى كثيرة يتصادف أن تجتمع دائما فى خلال الفصول الدافئة والحارة من السنة فزراعات الذرة التى تقع على جانبى الطرق الزراعية تهيىء للقاتل فرصة نادرة ليكمن لغريمه ثم يفر هاربا بعد ذلك دون عناء ، والأجران حيث تجمع الحاصلات الصيفية لدراستها وحيث قد اعتاد الكثير من الفلاحين أن يناموا فيها بقصد حراستها وهم فى الواقع لا يلبثون أن يستغرقوا فى سبات عميق والى جانبهم سلاحهم الذى من شأنها أن تسهل للجانى ارتكاب جنايته، ونظام المناوبات الصيفية لتوزيع مياه الرى أيام الجفاف معروف عنه أنه مصدر لكثير من المنازعات وأسباب الشجار والقتل، ثم عادة الفلاح فى الخروج من منزله هربا من حرارة الجو لينام أمام داره على المصطبة . كل هذه الأسباب مجتمعة أو منفردة تساعد على تعليل الظاهرة المتقدم ذكرها .

وهناك أمر آخر تظهره الإحصاءات ذلك أن الإجرام الانتقامى أكثر انتشارا فى الريف منه فى المدن الكبرى، ففى المدن نجد الإجرام معظمه من النوع المادى بل أن جانبا من الإجرام الانتقامى الواقع فى المدينة يعتبر فى واقع الأمر ريفيا . ذلك لأن ارتكابه ينسب الى المهاجرين من الوجه القبلى والذين يختارون تصفية منازعاتهم فى المدينة فى خلال اقامتهم بها للقيام بأعمال المقاولات أو للبحث عن عمل . فهل هذه الظاهرة الأخيرة تدل على أن تأخر الحضارة له دخل فى الإجرام ؟

إن من المسائل المقررة أن الإجرام كلما اقترب من المدينة اتخذ اتجاها أبعد من العاطفة والانفعال وأقرب الى الطمع فى المادة . غير أن ذلك لا يدل على تغير الى حال أحسن بل ولا على تناقص فى مقدار الإجرام، وكل ما يدل عليه هو أن الإجرام يصبح أكثر عنفا وغلظة

وقسوة ولكنه فى نفس الوقت يكون أقرب الى المكر واللؤم والخداع، بل والانحطاط الخلقى، بل لقد ذهب بعض كبار الباحثين إلى أن انعدام الحضارة بتاتا ليس سببا من أسباب الاجرام. فقد جاء فى كتاب العلامة (و.د.)مور يسون عن الاجرام وأسبابه صفحة٣٦ ما يلى:

"يقول المستر رسل ولاس فى هذا الصدد: لقد أقمت بين الزنوج المتوحشين فى جنوب أمريكا وفى الشرق حيث لا قوانين ولا محاكم فيما عدا محكمة الرأى العام فكان كل واحد من الأهالى يكن كل الإحترام لحقوق رفقائه وكان الاعتداء على أى حق من تلك الحقوق أمرا نادر الوقوع ان لم يكن معدوما تماما. ويشير المستر "هربرت سبنسر" الى كثير من الأمثلة على ما تتصف به الشعوب المتوحشة من صفات الرحمة والوداعة والاعتدال والأمانة واحترام حقوق الغير وكذلك العلامة "م دى. كاترفاج" فانه بعد أن لخص المميزات الخلقية للأنواع المختلفة من الأجناس البشرية انتهى الى القول بأنه من الناحية الأدبية لا يرى أن الجنس الأبيض يمتاز على الجنس الأسود بشىء يذكر وأن المدنية قد خلقت من الرذائل بقدر ما أوجدت من الفضائل وأن الشخص الذى يزعم أنها قد قللت من كمية الإجرام لشخص جرىء".

لهذا نسائل أنفسنا ما الذى حدا بالفلاح على أن يقدم على ارتكاب الجنايات الدموية لينتقم لنفسه؟ وهل يرجع هذا الى أنه من النوع الذى يطلق عليه العلماء عبارة "المجرم بطبعه أو بحكم الوراثة؟" كلا من غير شك. فالفلاح المصرى على العكس من ذلك يعتبر من خير فلاحى العالم طيبة وهدوءا، بل هو شخص لطيف المعشر حاضر الفكاهة وهو فوق ذلك شديد التمسك بدينه مدرك أنه يحرم الإجرام. ومن جهة أخرى فان النظرية الإيطالية القديمة التى كانت تقول بأن هناك أناسا خلقوا مجرمين لأنهم يرثون من الخواص الإجرامية ماتبدو آثاره على أجسامهم فى علامات ظاهرة قد اتضح أخيرا أنها إنما بنيت على وهم. أو كما يقول العلامة السير ايفلين واجلز برايز "خرافه" وطالما أوردت هذه النظرية الكثير من السخافات عن أمثال تلك العلامات فيما يسمونهم بالمجرمين الوراثيين كانخفاض فى الجبهة أو كثافة فى الحواجب أو بروز فى الآذان أو ما شاكل ذلك. وفى اعتقادى — وفى استطاعتكم أن تلاحظوا بأنفسكم أن آرائى الشخصية فى هذا الصدد قد لا تكون منزهة عن التحيز — اننا لو أتحنا لشخص أن يستعرض أمامه كل من تضمهم جدران أحد الليمانات مثلا بعد أن يصطفوا فى لباس متشابه هو رداء المسجونين ليختار منهم من تنطبق عليه الأوصاف المتقدم ذكرها لما كان من غير المحتمل أن تكون أول مجموعة يستخرجها من بينهم تشتمل على مدير الليمان نفسه.

كلا انى أعتقد أن تعلق الفلاح الشديد بأسباب الانتقام إنما يرجع للتقاليد العتيقة المبنية على روح الحماسة والفروسية القديمة وهى التى انتقلت اليه من جيل الى جيل من البدو من أيام الفتح العربى والتى صادفت هوى فى نفوس الفلاحين و بخاصة غريزتهم الكفاحية تلك الغريزة التى هى أكثر ظهورا فى الذكر . فبينما نجد أن أبرز غريزة فى المرأة هى غريزة الأمومة نرى أن الغريزة الغالبة فى الرجل ليست بغريزة الأبوة و إنما غريزة الكفاح والعراك . و بينما نرى أن الدمية تستهوى قلب الطفلة الصغيرة نرى أن الصبى الصغير يتملك قلبه حصان أو سيف أو غير ذلك من أسلحة القتال وانى ما زلت أذكر الى اليوم بائع الحلوى الذى كان يجول فى أزقة قريتنا يصيح مناديا على سلعته "حصان للولد وعروس للبنت" وفى ظنى أن هذا الرجل قد خلق عالما من علماء النفس .

ولقد مرت قرون عدة ساعد فيها الجهل وما يصاحبه من خواص أخرى على تمهيد عقول الفلاحين البسطاء لتنمو فيها تقاليد الثأر وتمتد جذورها حتى أصبح تعلق الفلاح بواجب الأخذ بثأره يكاد لا يقل عن تمسكه بعقيدته الدينية . فالفلاح كان ومازال الى اليوم يعتقد أن من الرجولة أن يقتص لنفسه بنفسه وأن من الضعف والجبن أن يشكو أمره إلى غيره ولو كان ذلك الغير الهيئة الحاكمة نفسها وأن من البطولة بل من الوطنية الحقة أن ينتقم لشرفه المثلوم . وهذا هو السر فى أنه لا يحس فى نفسه خجلا أو عارا إذا ما اتهم أو عوقب من أجل تلك التهمة التى كثيرا ما يعترف بها مباهيا فخورا . وهذا هو السر أيضا فى أن أهل بلدته يستقبلونه وهو عائد من السجن بالدف والطبول ، وهذا هو السر فى أن الكثير من جنايات القتل لا يصل أمرها الى الحكومة لأن أهل القتيل قد اعتزموا الثأر لأنفسهم ، وهذا هو السر فى أن كثيرا من الجنايات التى أبلغت وتم تحقيقها ينتهى أمرها بالفشل لأن الشهود فيها يحجمون عن الشهادة ليس دائما عن عدم اكتراث أو عن جبن أو خوف بل عن عطف على القاتل الذى قدم للملأ الدليل على رجولته وشهامته بأن غسل عاره وثأره فى دم غريمه . ولقد اشتهر عن العرب الذين طالما عرفوا بالبسالة والشجاعة واتقان ضروب الفروسية أنهم يفخرون بتاريخهم معترون به حتى لقد أنشأوا عن أبطالهم وفرسانهم أسطورة هائلة صاغوها فى سيل كبير من النظم والنثر وأخذوا يتبارون فى التغنى بها وانشادها فى مجتمعاتهم وأسواقهم ، فلما قدموا إلى مصر نقل عنهم المصريون دينهم ولغتهم ولباسهم ثم ما لبثت تقاليد الثأر عندهم (ومعناه النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن) أن انتشرت كالنار فى الهشيم بين الفلاحين الذين أقبلوا متلهفين على اعتناقه واتباعه بكل ما اشتمل عليه من تعاليم كان من أهمها التضامن القائلى والصبر الطويل والكتمان والتآمر ، وإنى لأقتبس للتمثيل على ذلك جانبا من ترجمة قصيدة نشرها الأستاذ "ا . و . لين" فى كتاب مصر الحديثة من حوالى اكثر من قرن ، قال يروى على لسان خضرة مخاطبة ولدها أبى زيد الهلالى عندما سألها عن سر ولادته ، صفحة ٤٠٣

" فليساعدك الله ياولدى لتأخذ بثأرك ، وتحب نجع بنى هلال ولكن عليك أن تكتم تماما ماقصصته عليك فلا تذكره لمخلوق ، لئلا يغضب عمك ، فاعتصم بالصبر وانتظر حتى تنال ماتشتهى من رغبة فى الانتقام " . قلت إن الفلاحين قد سارعوا إلى تلبية نداء الثأر المقدس، بل لقد عرف عنهم أنهم كثيرا ماتميزوا فيه أسلافهم العرب فكثيرا ماحدث فى القضايا أن فلاحا أخذ بالثأر لنفسه بعد أن بقى صابرا سنين طويلة ظل فى خلالها يمشى حاسر الرأس حافى القدمين رث الثياب لايغتسل ولا يقبل فى فقيده عزاء، وفى الواقع أن شبح الثأر يظل يلاحق الفلاح من مهده إلى لحده فهو إذ ينشأ طفلا صغيرا يلقن من فم أمه قصة الثأر فى عبارات ملتهبة تماما كما كان يفعل أسلافه الأقدمون فإذ ماترعرع وأصبح غلاما أقبل فى لهفة على الاستماع الى الكتب العديدة المؤلفة عن أولئك الأبطال وسيرهم مثل أبو زيد الهلالى والزير سالم وعنترة العبسى وسيف ابن ذى يزن أو على التفرج على نوع من أنواع التسلية الحديثة العهد نوعا ما وتسمى "صندوق العجب" أو "صندوق الدنيا" حيث يجلس الغلام يستعرض من خلال منظار مكبر صورا خيالية لأولئك الأبطال يمرون أمامه مجسمين فى شكل خلاب بينما يقوم المخرج بالتفسير فى صوت موسيقى يثير الحماس والاعجاب، فاذا ماشب وتزوج عمد إلى اظهار إعجابه بأولئك الأبطال فنقل صورهم مكبرة على واجهة منزله أو نقشها بالوشم على جسمه أو رسمها بالألوان الزاهية على صندوق جهاز العروس حيث ترى أبا زيد وهو ذو لون أسود مجسما فى شكل فارس مغوار يمتطى جوادا أصيلا و يمسك حساما يكاد حجمه يبلغ ضعف حجم الجواد وله شارب هائل قد يكون أقرب فى شكله الى حمر متحرك، فاذا ما اكتملت رجولته أقبل فى حماس على التردد على القهوة حيث يستمع الى الشاعر الذى ينشد على الرباب سيرة أولئك الشجعان وكيف كانوا يصبرون الأيام والليالى الطوال فى انتظار الفرصة للأخذ بثأرهم لاتهجع لهم عين ولا يغمض لهم جفن يأتون من ضروب التضحية و يبتكرون من مختلف أنواع الحيلة والخداع للإيقاع بغريمهم ماتشيب من هوله الولدان وكيف أن من كان يقتل له قتيل كان يبقى هو وكل عشيرته محلا للتعيير والتشهير الى أن يروى ظمأه بالأخذ بثأره.

على أن الفلاح على الرغم من كل ما ذكرناه لا يعتبر مجرما خطرا على المجتمع وكما قال السير روبرت أندرسون " ان الرجل الذى يقتل عدوه الشخصى لا يثير فى قلب الغير خوفا ولا هلعا" كذلك الفلاح لا يلبث أن يزول عنه كابوس الثأر حتى يعود سعيدا بعيشة الهدوء والقناعة مرتاح الضمير إلى أنه إنما قام بواجب مقدس. ولقد ترى الفلاح الذى اعترف فى التحقيق بجريمة القتل العمد أخذا بثأره لا يطيق أن توجه إليه ولو شبهة أو تلميح بأنه لص أو محتال. فهو فى نظر نفسه ليس سوى رجل منتقم عادل . وقد يبدو غريبا اختلاف وجهتى النظر بين القاتل واللص ، فبينما نرى القاتل يحتقر اللص ، نرى اللص يبدى اشمئزازه من قاتل سفاك يريق الدماء .

ولقد لوحظ إنى وضعت مسائل الانتقام للعرض أو شرف الأسرة ومسائل الأخذ بالثأر جنبا إلى جنب، والواقع أن الفلاح — و بوجه خاص فلاح الوجه القبلى — شديد التأثر بهذا الدافع إلى حد بعيد، فهو بمقتضى قواعد الفروسية وارجولة الحقة يعتبر أنه الشخص الوحيد المسئول عن حماية زوجته و جميع أفراد أسرته و بخاصة النساء منهم ولا يسمح بأن توجه حتى ولا ظل الإهانة إلى شرفه من هذه الناحية ولو ذاق فى سبيل ذلك الموت، والمعروف أن أقل شبهة تلقى على سير المرأة لا جزاء لها غير القتل . وكل فتاة فى الأسرة تعرف تماما أن زلتها فيها فنائها المحقق . ومما يروى فى هذا الصدد أن خفيرا من أهالى الصعيد بلغه أن أخته احترفت البغاء فى بلدة بعيدة فاستقل أول قطار وذهب فى البحث عنها إلى أن عثر عليها وأخذ فى طعنها حتى أزهق روحها ثم وقف على جثتها شاهرا خنجره ينادى بنفسه: بطلا مقداما صادق الوطنية .

وهناك إلى جانب الثأر والعرض أسباب أخرى للقتل انتقاما ، وهى مع أنها أقل أهمية إلا أنها لا تقل عنها ذيوعا وانتشارا، من ذلك التنافس على وظيفة العمدة أو شيخ الخفراء أو الخلاف على شؤون الرى أو البذر أو الزرع والحصاد أو التعرض فى وضع اليد أو ما إلى ذلك من خصومات عديدة تجتمع تحت عنوان " الضغائن " .

غير أن الفلاح قد عرف عنه فى كثير من الأحوال أنه يلجأ للقتل انتقاما لأسباب هى من التفاهة بحيث قد لا يخطر على البال أن تكون كافية حتى لإثارة نقاش بسيط، وهناك أمثلة لا تحصى لجرائم قتل ارتكبها الفلاح لمجرد كون عنزة جاره دخلت فى زرعه أو لأن شخصا لم يرد عليه تحيته بمثلها أو لأنه أصر على أن يحصل على سداد دينه الضئيل فى موعده أو لأنه اختلف على ثمن خسة أو فلة أو عود من القصب أو لأنه نازعه ظل شجرة، ولم يكن القتل فى مثل هذه الأحوال مرتكبا دائما تحت عامل ثورة الغضب والاندفاع، بل أن كثيرا منها قد ارتكب بعد تأمل وتفكير هادئ فما السبب ؟ أعتقد أن التعليل الصحيح هو أن الفلاح بحكم ما هو فيه من عزلة فكرية عرضة لأن يفقد قدرته على وزن الأمور والحكم عليها حكما صحيحا فكما أن السجين الذى يقضى حياته بين جدران السجن لا يستطيع أن يطل منه على الكون المحيط به ليتعرف ما حوله معرض لأن يفقد حاسة قياس المسافات والأحجام، كذلك الفلاح يقضى طول يومه لا يشغل باله سوى خصومة تبدو فى بادئ الأمر تافهة ولكنها لا تلبث أن تنمو وتتجسم أمام مخيلته حتى تصبح هائلة الحجم فهو يتدرج بفكره إلى تصور الاعتداء بأنه مضايقة فاستخفاف فمعاكسة فتحقير فإهانة، وهنا يرى أن كرامته مهددة وأن شرفه يقتضى أن يبادر إلى الاقتصاص له كما يجب على الرجل أن يفعل .

وقبل أن أترك هذه النقطة يسرنى أن أشير إلى أن الفلاح سائر حثيثا فى طريقه إلى الأمام وأن وزارة الشؤون الاجتماعية التى قد أنشأت مصلحة خاصة بشؤون الفلاح تبذل

جهدا متواصلا بالتعاون فيما بينها و بين باقى الوزارات وبخاصة وزارة الداخلية والصحة والمعارف لتحسين حال النلاح والنهوض بمستواه من كافة الوجوه وأنها قد بدأت تقطف ثمار تلك الجهود التى تركت أثرها بالفعل فى حالة الأمن العام .

وأخيرا أرى لزاما على أن أضيف كلمة عن جرائم القتل التى ترتكب لدافع مادى غير انتقامى فهى على الرغم من كونها أقل عددا إلا أن لها أهميتها وخطرها على الأمن فكثيرا ما يرتكب القتل لتسهيل جريمة سرقة أو سطو أو خطف أو للتخلص من مورث أو زوج غير مرغوب فيه ؛ على أن أكثرها ذيوعا على الاطلاق جناية القتل التى يرتكبها القاتل المأجور فهى على الرغم من أن الدافع الأساسى فيها هو الانتقام إلا أن القاتل الأجير ينظر إليها نظرته إلى صفقة تجارية .

ثالثا — الوسائل : وما دمنا فى صدد وسائل القتل يجب أن ننوه إلى هذه الوسيلة الهامة وهى تأجير الأشقياء محترفى القتل — (ويطلق عليها فى عرف الفرويين " الكراء ") قد زاد انتشارها — حتى فى قضايا الأخذ بالثأر أو الانتقام للعرض ، بل لقد بلغت من الذيوع حدا جعل الناس يفترضونها كقضية مسلمة فكلما ارتكبت جناية قتل لم يعرف فيها شخص الجانى فقد ترى المجنى عليه أو أهله لا يتهمون خصمهم بأنه ارتكب القتل بنفسه ولكن بأنه قد استخدم آخر لارتكابه .

وقد يبدو مستغربا لأول وهلة أن يكل الفلاح أمر الانتقام لثأره أو لشرفه وعرضه إلى شخص أجنبى عنه على خلاف ما قضت به التقاليد . ولكن الواقع أنه يعمد إلى ذلك لا عن خوف أو رهبة و إنما عن الرغبة الملحة فى أن يصل إلى غرضه من الانتقام كاملا غير منقوص — ذلك أن القاتل المحترف ليس أحذق منه فى الرماية و إصابة الهدف ، فحسب بل أن لديه سلاحا أكثر فتكا وكفاية ثم أنه يعد للجريمة خطة محكمة تمام الإحكام كما يعد دفاعا له ولصاحبه . وهو فوق ذلك يستطيع أن يرشى رجال الحفظ الذين يعرفهم كما يستطيع التخلص من شهود الرؤية الذين إن هم لم يعرفوه من قبل لا يستطيعون الاستعراف عليه غالبا أما إذا عرفوه فإنهم يحجمون عن الشهادة خوفا على أنفسهم من بطشه وانتقامه . وهو فى معظم الأحوال يتخذ نوعا من الاحتياط لا يأتيه عادة الجانى غير المحترف . ذلك أنه قبل أن يفر هاربا بعد ارتكاب الجريمة يمحى على مكان الحادث نظرة أخيرة ليستوثق من أنه لم يترك وراءه أثرا يدل عليه . ثم هو إلى ذلك يحذق بعض الحيل التى يستطيع أن يضلل بها رجال البوليس — غير أنه يحسن بى قبل أن آتى على ذكرها أن أقدم لكم صورة سريعة من ذلك الشق المأجور . فهو فى أغلب الأحوال من البدو الذين اشتهروا بإجادة الرماية و إتقان الفروسية وهو غالبا من المشبوهين الذين يعتبرون أشد خطرا حتى من الخارجين من الليمانات ، ذلك أن المشبوه بحكم كونه غير خاضع لرقابة البوليس يستطيع التجول ليلا ونهارا أينما شاء وهو ملم تمام الإلمام بحقوقه وحرياته الدستورية التى تحمى شخصه ومسكنه حريص على ألا ينتهك

منها شيء . وليس جسمه حتما ذا ضخامة أو قوة خارقة ، بل قد يكون على العكس ضئيل الجسم نحيف البدن غير أنه على أى حال شديد النشاط خفيف الحركة ماهر فى إصابة الهدف وفى ركوب الخيل حاد البصر ثم أن له فى أغلب الأحوال شاربا كبيرا إذا ما زال الشارب يعتبر عندهم أثرا من آثار البطولة القديمة ولقد عرفت منذ حوالى عشرين سنة أو أكثر شقيا يدعى مطراوى (ولم تكن معرفتى به وثيقة بطبيعة الحال) وكان ذكر اسمه كافيا لالقاء الرعب والفزع فى قلوب سكان مديرية البحيرة ومع ذلك فقد كان يبدو لى من الضآلة كما لو كان رجلا مريضا . ويوجد بين أولئك الأشقياء أناس أغنياء لهم حاشية من أتباع وأنصار وقد عرف عن معظمهم أنهم يفرضون الإتاوات على الملاك والأعيان وحتى على شركات السيارات ، بل يقال إنهم يتقاضونها طبقا لتسعيرة معينة بحيث يرتفع أجر ارتكاب الجناية كلما زاد اتقانها فالشق يتناول مثلا عشرة جنيهات فى نظير قتل " كامل " لايستطيع المجنى عليه فيه أن ينطق بكلمة قبل موته وخمسة جنيهات إذا كانت الرماية أمل إحكاما والغريب أن لدى هؤلاء الأشقياء فكرتهم الخاصة عن الشهامة والمروءة — فلقد روى عن أحدهم أنه لما طالب عميله بالأجر سلفا — شكا له سوء حاله فرق له وقال إنه سيقتل غريمه دون أجر لوجه الله !

أما طريقتهم فى القتل فتتلخص فى أن القاتل الأجير يزور بلدة المجنى عليه وهناك يدرس أحواله وعاداته ثم يفحص مكان الحادث ويرسم الخطة له ، بل قد يقوم بعمل تجربة للجريمة أو قد يسجل بطريقة رسمية دفاعه وذلك بأن يبلغ مثلا نقطة بوليس بعيدة عن حصول حادث مختلق ليثبت وجوده فى مكان بعيد . ومن أهم الحيل التى يلجأون إليها حيلة شهيرة قد يكون فيها الدليل الوحيد لظاهرة غريبة فى الإحصاء لم يكن يمكن تفسيرها بدونها تلك الظاهرة هى أن جنايات القتل تكثر حيث يقل عدد الأشقياء وتقل حيث يزداد عددهم أما الحيلة فهى أنهم يقومون بقتل غريمهم بعيدا عن بلدته فيستدرجونه إلى مكان بعيد منتحلين أحد الأعذار المغرية . وهناك يصبح كل من القاتل والقتيل غرباء غير معروفين ويكاد يكون من المحقق أن يكتفى بتحقيق مقتضب قصير وأن تنتهى القضية بالفشل . وهناك حيلة أخرى تتلخص فى قتل غريمهم على الحدود الفاصلة بين بلدتين أو مركزين أو مديريتين . فلقد أدرك الأشقياء الطريقة التى يتبعها البوليس الريفى أحيانا لضبط الجنايات وعلمتهم التجارب أنه كلما كان الاختصاص محل نزاع بين جهتين رجح جدا أن يحدث خلاف كبير على الاختصاص يقوم فيه الطرفان بتطبيق الخرائط ومقارنة الرسوم لتقديم الدليل على عدم الاختصاص . ولقد حدث مرة أن أحد مشايخ البلد شاهده أهل القتيل يحمل الجثة على كتفه ويلقيها إلى الناحية الأخرى من مجرى مياه على الحدود بين مركزين نشأ عن ذلك عراك كبير ثم شرع فى التحقيق الذى دار حول تحديد الاختصاص وعلى حادث الشجار مع شيخ البلد بينما لم تستطع الجثة المسكينة إلا الانتظار ولقد اعتاد القتلة المحترفون

أن يدتفلوا هذا النقص الذى يسرنى أن أقوله إنه أخذ يتضاءل. وهناك فى جهة ما ببلاد الوجه البحرى نقطة تلتقى عندها ثلاث مديريات وخمس مراكز كانت فى وقت ما تعتبر جنة للسفاكين.

ولحسن الحظ أن عدد أولئك القتلة قد أخذ يتناقص فى السنوات الأخيرة بسبب الإجراءات العسكرية المتخذة لترحيلهم إلى معتقل خاص طول مدة الحرب وقد كان هذا الإجراء سببا فى هبوط أرقام الجنايات وبخاصة القتل .

أما الوسيلة الثانيــة للقتل فهى السلاح المستعمل ولا شك أن أخطر أسلحة القتل وأكثرها انتشارا هو السلاح النارى، صحيح أن هناك أنواعا أخرى عديدة تسمى الأسلحة البيضاء كالسكين والبلطة والخنجر وهناك السلاح الأصفر وهو الزرنيخ الذى يستعمله النساء عادة فى قتل أزواجهن . إلا أن السلاح النارى بأنواعه هو أهم أسلحة القتل بلا نزاع إذ يندر أن تقل نسبة استعماله عن ٧٠ ٪ من مجموع جنايات القتل ومن أهم أنواعه البندقية الخرطوش عيار ١٢ و ١٦ وكذلك الفرد والجوز ، أما المقروطة أى البندقيــة المقصوص جزء من ماسورتهـا فلها مزية خاصة هى أنهـا من الطول بحيث تساعد على إتقان إصابة الهدف ومن القصر بحيث يسهل إخفاؤها تحت الرداء الخارجى (أو الجلابية) ولا أظن أن هناك فلاحا واحدا — سواء أكان مجرما أم غير مجرم — لا يحتفظ ببندقية أو فرد واحد على الأقل للدفاع عن نفسه فيخفيها باعتناء ويحرص عليهـا كل الحرص كما أعتقد أن ما يضبطه البوليس سنويا من السلاح النارى ويبلغ فى المتوسط تسعة آلاف قطعة لا يكون إلا نسبة ضئيلة مما هو فى أيدى الفلاحين بالفعل وإن من المدهش حقا سرعة قدرة الفلاحين على إخفاء أسلحتهم النارية ثم إظهارها فى طرفة عين بينما قد يقضى البوليس الساعات الطوال فى البحث عنها على غير طائل — قد حدث فى إحدى القضايا أن بلدتين جرت بينهما معركة كبيرة أطلقت فيهـا مئات من الأعيرة ولم يفلح البوليس فى العثور على سلاح واحد ولكنه عقب انصرافه عادت المعركة إلى شدتها بالأسلحة ذاتها — وفى حادث آخر أطلقت أعيرة كثيرة جدا وأصيب وقتل كثيرون فلم يعثر البوليس إلا على سيف وبندقية ثبت أنها غير مستعملة من زمن طويل .

والفلاح يفضل السلاح النارى لحكمة ظاهرة هى أنه يستطيع استعماله وهو فى مكمنه دون أن يتماسك مع المجنى عليه أو يعرض نفسه لرؤيته أما عيبه الأساسى وهو صوت الطلق فقد أضاع قيمتــه عادة منتشرة بين الفلاحين هى إطلاق أعيرة المقلقة أى التى تطلق فى الليل بقصــد إرهاب الوحوش او اللصوص فقد ترتب على كثرة استعمالهـا أن صوت الأعيرة لا أصبح لا يكاد يلفت النظر ، ولقد حدث أن سألت خفيرا كان دركه على مسافة قريــبة من مكان جثة القتيل لماذا لم يذهب على صوت العيار فأجاب بأنه اعتقد أنه عيار مقلقة لأنه لم يعقبه صوت استغاثة أو أنين .

محمد البابلى
مدير كلية البوليس الملكية